

الترجم والسير الذاتية في التراث العربي الإسلامي

الصادق العمامي

□ إن نشأة الترجم والسير مرتبطة بنمو الاحساس بالتاريخ وبانتشار الكتابة عند مختلف الأمم، فإذا استثنينا ما كان عند العرب في الجاهلية من روايات الأخبار المتعلقة بالأجداد والفرسان وغيرهم فإن الترجم والسير لم تعرف إلا بعد شيع الكتابة وظهور حركة التدوين التاريخي، فكانت بداية التأليف في السيرة، بالسيرة النبوية، وفي الترجم، بترجم الصحاوة ورجال الحديث^(١) ولا يخفى أن ذلك بفعل عوامل مختلفة منها معرفة العرب من اعتنacz بالأنساب والعشائر والأشخاص من كان لهم دور أو مزية أو مكانة في واقع حياتهم وأيضاً بحكم مقتضيات النطور الحضاري، وبتأثير القرآن الكريم نظراً لما ورد فيه من أخبار الأمم والأنبياء وغيرهم.

وفي موضوع الترجم والسير الذاتية — على الأخص — كان التأثير المباشر في نشأتها لمصادرين أجنبيين هما المصدر الفارسي والمصدر اليوناني. ومع التسلیم بتفاعل الثقافات، وتأثرها داخل المجتمع الإسلامي بعد افتتاح العرب على غيرهم من الأمم، ومساهمة أعلام من هذه الأمم في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية، فإنه لا يمكن القول بأن التأثير الأجنبي هو العامل الحاسم والوحيد في نشأة الترجم والسير الذاتية، خصوصاً أمام هذا الكم من الانتاج في الترجم والسير الغربية، والذي لم يعرف مثله في تنوعه منهجاً ومادة في مدنیات الأمم السابقة، وكذلك ما كان عند العرب منذ القديم من ابداع الكثير منه يدخل في نطاق التعبير المباشر عن الذات كالخطب والوصايا، ورواية الأخبار والواقع التي شارك فيها الرواذي أو باشرها بنفسه من أسفار أو حروب أو أعمال خاصة. مما يرجح الاعتقاد بوجود أسس وبوادر للسيرة الذاتية عند العرب منذ مقابل الإسلام، ولا يمكن تجاهل ذلك أو إغفاله عند النظر في نشأة السير الذاتية في التراث العربي الإسلامي مع اعتبار ما للتأثير الأجنبي بالإضافة إلى تلك الأسس والبوادر. يقول محمد غنيمي هلال : «إن الأجناس الأدبية قد تنشأ طبيعية في الآداب القومية دون استعanaة في نشأتها بالأداب الأخرى، ولكنها حين تهض، وتتضخ

فيها استجابة لل الحاجيات الاجتماعية والفكيرية تستمد — عادة — أكثر عوامل نهوضها ونموها من الآداب الأخرى⁽²⁾

وقد فسر البعض قلة الاقبال على كتابة السير الذاتية في الأدب العربي القديم «بانفصال العناصر الروحية عند الساميين». وننجز عن ذلك غموض في الشعور بالشخصية، وهذا لم يعن العرب بكتابته سيرهم الذاتية، والذين كتبوا هذا النوع أغلبهم ليسوا عرباً⁽³⁾ ولم يتم الانتباه إلى أسباب أخرى موضوعية مقنعة، فبعد الفقي حسن حاول الكشف عن مسوغات هذه الظاهرة بقوله: «.. ولعل العرب كانوا أحقر على حيواتهم الخاصة حين رغبوا عن الترجم ذاتية لأنفسهم، ولعل أصحاب الخطط والشأن منهم من أهل القدرة على الكتابة قد عدلوا عن الترجمة لأنفسهم مادام غيرهم من الكتاب والمؤرخين قد تولى ذلك عنهم، ولعل من خلق العربي وسمات نفسيته لا يتحدث عن نفسه بقوله أنا أو عن عمله بقوله عملت..»⁽⁴⁾ وقد يكون هذا التفسير صحيحاً، خصوصاً أن العربي قد أوجد أنواعاً أدبية وسبلاً للتعبير عن ذاتيه في الشعر وفي الخطب والوصايا والرسائل، حيث بيت أفكاره وآراءها ومشاعره ومواقه من الحياة والأحياء من حوله، وبالاضافة إلى المواضيع الاجتماعية المشبعة بالورع والتخلق بالتواضع، ونكران الذات وكان هذا متطلباً من العلماء أكثر من غيرهم باعتبارهم قدوة، ومصداق ذلك ما وجدناه عند جل كتاب الترجم أو السير الذاتية من تقديم اعذار ومسوغات بين يدي ترجم أو سيرهم الذاتية وحتى في بداية العصر الحديث كـ عند أحمد بن المامون البلغيثي المتوفى سنة 1929 (وستعرض لذلك في ميايٌ من البحث) وقد حاول الت MAS مسوغات لكتابته سيرته الذاتية من القرآن والسنة وعمل السلف من جلة العلماء قبله⁽⁵⁾.

ومع هذا فقد عرف التراث العربي قدرًا من الترجم والسير الذاتية وإن كان لا يتكلفاؤ مع ما كان من السير أو الترجم الغيرية، ومن المعلوم أن العرب قد تعرفوا عما كتبه جالينوس الطبيب الفيلسوف اليوناني إذ ترجم حنين بن إسحاق المتوفى سنة 260 هـ كتبه وتأثر به في كتابة ترجمته الذاتية وكذلك تأثر به محمد بن زكريا الرازى المتوفى سنة 313 هـ. وكذلك ابن الهيثم المتوفى سنة 430⁽⁶⁾ واطلع العرب أيضاً على أخبار الفرس فقد أشار ابن مسكونيه المتوفى سنة 421 هـ في كتابه تجارب الأمم إلى السيرة الذاتية لكسري انوشروان ونقل منها وترجم ابن المقفع المتوفى سنة 142 هـ السيرة الذاتية لبرزويه الطبيب الفارسي في كتاب «كليلة ودمنة».

ولذا أمعنا النظر في مجموع مالدينا — أو جله على الأقل — في التراث العربي

الإسلامي مما يمكن أن يدخل في نطاق الترجم والسير الذاتية، سيفضي بنا ذلك إلى نتائج أولية منها :

إن من هذا التراث ما هو موجز لا يتجاوز صفحات معدودة وهو ما فضلنا أن نطلق عليه «ترجم ذاتية» تأكيداً على ترسير مصطلح مستعمل من قبل. كما نجد ما هو مطول، وأثرنا أن نخصه بمصطلح «سيرة ذاتية» ووضع الترجم الذاتية في التراث أسبق تاريخياً إذ بدأً منذ أواخر القرن الثالث الهجري، أما السيرة الذاتية فكان ذلك منذ أواخر القرن الخامس الهجري.

وقد تنوّعت الترجم والسير الذاتية في التراث من حيث مراحل عمر كتابتها ومقدارها والدّوافع إليها وأساليبها وطريقة صياغتها وصفة كتابتها ونوعية تخصصاتهم العلمية والأدبية، فنجد من تناول فيها فترة خاصة من حياته أو جلها أو حالة معينة أو تجربة خاصة مرّ بها. قد يقصد الدفاع عن أفكاره أو توضيحها أو بيان منجزاته وما اضطلع به من مهام أو إظهار ماعاناه في مراحل تعلمه أو ما كابده من عراقيل وما تعرض له من مآس ومحن وآلام وما كان يقض مضجعه من قلق وشك أو دفاعاً عن نفسه مما يكون قد اتهم به من شطط في الرأي أو السلوك أو كشفاً عن خفايا شخصية أو مذهبية واماطة الحجب عن أسرار اجتماعية وسياسية. أو غير هذا مما يمكن أن يكون واقعاً تحت تجربة كتابتها.

كما تفاوتت السير والترجم الذاتية من حيث قيمتها الفنية صياغة وأسلوباً وبناء فمنها ذات الأسلوب التصويري القصصي المعتمد على الوصف والسرد يتخلله الحوار أو الاستبيان ومشاكلة الواقع بنقل كلام الشخصيات الوارد ذكرها وهناك أيضاً ذات الأسلوب التقريري التحليلي، وقد يكون أسلوبها جاماً بين النوعين السابقين. وفوق هذا وذلك قد تعتمد على البساطة والانطلاق مع الطبع أو تنحو منحى التصنّع وحشد الألوان البلاغية والألفاظ القاموسية. قد يراعي فيها التعاقب الزمني وجودة تقسيم مراحلها وترتيب أحداثها ومحاولة إشراك القارئ بطريقة مشوقة ببعث الحياة فيما يرد فيها من أحداث وذكر الشخصيات. والتوازن بين الذات والواقع الخارجي أو التركيز على الجانب الذاتي أو الواقع الفكري أو الاجتماعي أو السياسي. أو خلاف ذلك مما نسبته.

وأغلب كتاب الترجم الذاتية من الفلاسفة والأطباء والرياضيين وكتاب السير الذاتية من المتصوفة ورجال السياسة، وأما الأدباء والعلماء من مؤرخين وفقهاء ومحديثين، فقد كتبوا الصنفين.

١ – الصنف الأول : الترجم الذاتية

أ) الترجم الذاتية للفلاسفة والأطباء والرياضيين. من هؤلاء عدد لا يتأتى لنا في هذه

العجالات العمل على تفصيل القول في دراسة تراجمهم الذاتية. وهم :

- 1 — أبو زيد حنين بن إسحاق⁽⁷⁾ (194 هـ — 260 هـ)
- 2 — أبو بكر محمد بن زكريا الرازي⁽⁸⁾ (250 هـ — 312 هـ)
- 3 — أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا⁽⁹⁾ (370 هـ — 428 هـ)
- 4 — أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم⁽¹⁰⁾ (354 هـ — 430 هـ)
- 5 — أبو الحسن علي بن رضوان⁽¹¹⁾ (المتوفى سنة 453 هـ وقيل 460 هـ)
- 6 — موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي — المعروف بالبلباد⁽¹²⁾ (557 هـ — 629 هـ)
- 7 — السموأل بن يحيى المغربي⁽¹³⁾ المتوفى سنة 570 هـ

ب) أما الأدباء والعلماء من فقهاء ومؤرخين ومحدثين الذين كتبوا تراجم ذاتية فهم :

- 1 — علي بن زيد البهقي⁽¹⁴⁾ (499 هـ — 565 هـ)
- 2 — أبو عبد الله محمد بن صفوي الدين المعروف بعماد الدين الأصبهاني⁽¹⁵⁾ (519 هـ — 597 هـ).
- 3 — شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل — المعروف بأبي شامة القدسي⁽¹⁶⁾ (599 هـ — 665 هـ)
- 4 — أبو الحسن نور الدين علي بن موسى بن محمد المعروف بابن سعيد المغربي⁽¹⁷⁾ (610 هـ — 685 هـ)
- 5 — أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن الخطيب المعروف بلسان الدين ابن الخطيب⁽¹⁸⁾ (713 هـ — 776 هـ)
- 6 — أبو الحسن محمد بن محمد الجزري⁽¹⁹⁾ (751 هـ — 833 هـ)
- 7 — شمس الدين أبو الحسن محمد بن عبد الرحمن السخاوي⁽²⁰⁾ (831 هـ — 902 هـ)
- 8 — جلال الدين عبد الرحمن بن الكمال بن أبي بكر السيوطي⁽²¹⁾ (849 هـ — 911 هـ)
- 9 — أحمد بن محمد المقرئ التلمساني⁽²²⁾ (986 هـ — 1041 هـ).

بالنظر في هذه القائمة يتبين لنا تنوع هذه التراجم الذاتية — كما سبقت الاشارة إلى ذلك.

1 — فترجمة حنين بن اسحاق الذاتية كان الدافع لكتابتها شعوره بمرارة الظلم الذي لحقه من خصوصه، ولاشك أن ذلك شكل أكبر حافز من الناحية النفسية لكتابتها، وكذلك ما اطلع عليه من أثار جالينوس الذي رأى بين ماحدث لهما معاً تماثلاً، فقد كان يراه قدوة في العلم والسلوك وينعته بالفاضل وترجمته تكشف عما كان يقع في قصور الخلفاء من مكائد ومؤامرات بين المقربين من الخليفة لبعضهم البعض، ويدل هذا التصرف على ما قد يكتن بعض من يتسب إلى العلم من كيد لمن ظهر تفوقه عليهم. مما جعل حنين يشعر بقلق شديد هزه نفسياً وتسرب إلى أعماقه فترجمته دفاعية أكثر مما يتغير منها تسجيل أخبار أو معلومات عنه.

2 — أما الرازى فترجمته أيضاً دفاعية ومبريرية لسلوكه الخاص اذ عاب عليه الناس إقباله على الحياة وبما هاجها. واتصاله بذوي السلطان وتقريره إليهم، وهذا السلوك — في نظرهم — يخالف نهج سقراط حيث ترفع عن اللذات وأعراض عن الشهوات والرازى لا يرى هذا متناسباً مع الطبيعة البشرية السوية، متحججاً بأن سقراط قد أدرك خطأه وغير سلوكه ذاك ويتصح من ترجمة الرازى الذاتية حبه للاعتدال وتحقيق العدل وحب العلم، وكراه الحاق الضرر حتى بالحيوان، وبرز مخالطته لذوي النفوذ بأداء الواجب باعتباره طيباً ومن أجل أداء النصح لخير الإنسان ونفعه.

3 — والترجمة الذاتية لابن سينا اخبارية وتحمل في طياتها دفاعاً عن مواقفه وأفكاره ومحاولة اقناع الآخرين بأن ما حصل عليه من تفوق معرفي وما كان يحظى به من مكانة. إنما ذلك بمجرد وكمه الخاص ومواهبه بأسلوب يتسم بالوضوح معتمداً على التحليل والإيجاز وقد اقتصر فيها على ذكر مولده وبعض أخبار أسرته ومراحل تعلمه بدءاً بحفظ القرآن ودراسة اللغة والأدب والحساب والفقه والفلسفة. والظاهر أن أسرته كانت على حال من اليسر إذ أن والده عين له معلمين خصوصيين كما يتضح أيضاً أن أكبر تحصيل علمي إنما تم بجهوده الخاصة في الطب والفلسفة معترفاً بفضل السابقين وخاصة الفارابي.

4 — وترجمة ابن الهيثم الذاتية صورة لحياته العقلية وإنجازاته العلمية وهي ذات توجه اعتبرافي حيث صرحت بأفضلية المنهج العلمي للوصول إلى الحقائق اليقينية في مجال البحث وهذا اعتراف جرىء بالنظر إلى ما كان سائداً من التحكم على الاختيارات الخاصة التي تختلف ماعليه الجمهور. يقول : «حضرت في ضروب الاعتقادات وأنواع علوم الديانات، فلم احظ من شيء منها بطلاق ولا عرفت للحق منهجاً ولا إلى الرأي اليقيني مسلكاً محدداً فرأيت أنني لا أصل إلى الحق، إلا من آراء عنصرها الأمور الحسية وصورتها

الأمور العقلية، فلم أجد ذلك إلا فيما قرره أرسسطو طاليس من علوم المنطق والطبيعيات والأهليات التي هي ذات الفلسفة وطبعتها».

٥ — تكشف الترجمة الذاتية لعلي بن رضوان عن معاناته من أجل التحصيل العلمي وما قاساه من فقره يقول : «لم يكن لي مال انفق منه فلذلك عرض لي في التعلم صعوبة ومشقة» وعلل اختياره الطب لصلته بالفلسفة ولتوافقه مع مداركه وميوله وأيضاً بواقع الأفلاك أثناء مولده، وهذا يدل على مدى اعتقاد بعض العلماء بما للأفلاك من تأثير على مصير الإنسان ويبيّن لنا أن ترجمته الذاتية كانت بحافر تعلييل ما حصل عليه من تفوق وتحلصاً مما كان يُنقل كأله من هموم متوجهاً أن يتخد قدوة وأن تعتبر ترجمته موعدة إلا أنه لم يراع في أسلوبها ما يضفي عليها مسحة من التشويق وربط القارئ بها، وقد حفت بذكر مصطلحات فلكية وطبية معتمداً على العبارة الموجزة وذكر الأحداث البارزة ومسلكه مع مرضاه وحال معاشه وأخلاقه.

٦ — والترجمة الذاتية للسموأل بن يحيى المغربي تصوير لمعاناته الفكرية واعتراف بما كان عليه من ضلال، وتبشير لما اهتدى إليه من الحق ونور اليقين، أصل والده من مدينة فاس انتقل منها إلى بغداد وفيها ولد السموآل وكان من العارفين بالتوراة وأحد علماء اللغة العبرية، وقد تعمق في دراسة الحساب والهندسة والطب الذي تعلق به أكثر من غيره، وكانت تستهويه من قبل قراءة القصص والحكايات، واطلع على كثير من ممارسات الأحبار اليهود من تدليس وتضليل العامة من أبناء جنسه وبفضل مطالعاته التاريخية وخاصة السيرة النبوية الحمدية اهتدى إلى الإسلام فاعتنته وترك اليهودية، وزاداد يقيناً واقتناعاً لما قرأ القرآن وفهم أسراره، وقارن بما ورد في التوراة فأدرك الرأي فيها وهذا قام بالرد على أباطيل اليهود وأكاذيبهم، وهذا أهم عنصر في ترجمته وصاغها بأسلوب يعتمد على الأدلة والبراهين العقلية والمقارنة والترجيح. مع بساطة التعبير ووضوحه.

٧ — أهم ماتوّخاه البغدادي في ترجمته الذاتية هو الأخبار بأحواله وتنقلاته واتصالاته بالحكام والعلماء. ومن خلالها نتبين أن الدافع لكتابتها من الناحية النفسية شعوره بالغربة وطموحه ومعاناته من أجل إثبات وجوده وتحقيق ذاته. ومتناز بذكر تفاصيل عن مصادر ثقافته التي قوامها القرآن واللغة والحديث والفقه والتصوف والفلسفة والكيمياء، وتدل أيضاً على طموحه لكسب ثقة ذوي النفوذ، وهذا غادر بغداد إلى الشام ثم مصر، واتصل بصلاح الدين وبأبنائه من بعده، ويظهر البغدادي مدى إعجابه بصلاح الدين لما رآه فيه من تفاني في خدمة مصالح المواطنين وتواضع وحب العلم والعلماء، وسجل حزن

الناس على وفاته على اختلاف نزعاتهم ودياناتهم ويتصفح أن البغدادي كان متفانياً في خدمة العلم محباً للاستراة منه عاكفاً على البحث والتأليف، وساق وصاياً مما كان يعتبره مثلاً طمح لتطبيقها في أدب النفس والسلوك وأخذ العبر من التاريخ الذي يرى وجوب قراءته. وترك عدد من المؤلفات في موضوعات مختلفة تدل على موسوعيته وتعدد معارفه بين لغوية ودينية وفلسفية.

ب) الترجم ذاتية للعلماء والأدباء لاختلف من حيث مقاصدها العامة عن الترجم ذاتية للفلاسفة والأطباء إلا في أساليبها وطريقة الصياغة والبناء، ومصادر التكوين الثقافي.

1 — الترجم ذاتية للبيهقي إخبارية تناول فيها مولده بقصبة السايزوار في ناحية بيحق قرب نيسابور ببلاد خراسان، ومصادر ثقافته عمادها القرآن والنحو والشعر والحديث وعلم الكلام مبيناً الكتب التي حصلها أكثر من التنقل بين الحواضر حتى استقر بنيسابور للتدرис بها ثم في بيحق، وأورد فهرساً لكتبه ومعظمها في الشعر والشريعة، منها وشاح الدمية وهو ذيل لكتاب دمية القصر للباخرزي وهذا أيضاً ذيل لكتاب يتيمة الدهر للشعالبي.

2 — الترجم ذاتية للعماد الأصبهاني قبل أنها في كتابه «البرق الشامي» وهو في نظر البعض مفقود وإن ياقوتا منه استخلص الترجمة التي أثبتها في معجم الأدباء⁽²³⁾ وفي نظر البعض أن الكتاب توجد نسخة منه في أكسفورد.⁽²⁴⁾.

3 — الترجم ذاتية لأبي شامة وهي إخبارية اقتصر فيها على ذكر مولده بدمشق مثبتاً أسماء آبائه وأعمامه، والظاهر أنهم كانوا ذوي سمعة ومكانة اجتماعية أو فكرية مما يدعو إلى الفخر والتنويم، ومصادر ثقافته هي القرآن ودراسة القراءات والفقه والحديث وعلوم اللغة والتاريخ وعرف بأبي شامة لوجود شامة فوق حاجبه الأيسر، ولم يجد منه طموح سياسي أو رغبة في الاتصال برجال الحكم، ولم يعبر عن صراعه مع من كان يعاصره من رجال الفكر أو السياسة كأنه عاش في بيئة تتسم بالسكونية يسود فيها الوفاق، وصاغها بضمير الغائب. ويتبين أن أكبر طموح له هو أن ينال أكبر حظ من العلم، حتى أنه أورد منamas رآها أو رویت له تدل على ذلك.

4 — ترجمة ابن سعيد مقتضبة صاغها بضمير الغائب لم يتناول فيها شيئاً من أحواله وظروف نشأته وتعلميه ولم يذكره مصنفاته كما فعل الكثير من الأدباء والعلماء واقتصر على ذكر مولده بغرناطة سنة 610 هـ، جال في الأندلس ورحل إلى المغرب والجزائر وتونس ومصر والشام حيث اتصل بشخص يعتبر من علماء حلب وهو المدعو «المحسن كمال» الذي ألف له ابن سعيد كتاب «المغرب» سنة 674 هـ وهي السنة التي عزم فيها على الحج، وقد أثبت تناولها من شعره.

٥ — الترجمة الذاتية لابن الخطيب وهي إخبارية في توجهاها أني على ذكر إسمه وأسماء جملة من آبائه. وأصلهم من قرطبة وبيتهم عرف أولاً ببني الوزير ثم ببني الخطيب انتقلوا إلى طليطلة بعد وقعة الرَّبُض ثم بعد استيلاء الأسبان عليها تفرقوا في مدن الأندلس واستقر بعضهم في غرناطة وقد نوه بمحكماتهم ونباهتهم وحسن سلوكهم. وذكر مولده في 25 رجب سنة 713 هـ = 1313 م، وبدأ تعلميه على ماجرت عليه العادة بحفظ القرآن الكريم ثم دراسة العربية والفقه والتفسير والحديث والطب، مشيراً إلى شيوخه وجملة من مؤلفاته حسب تواريخت تأليفها. وأثبتت عدداً من قصائده ومقطوعاته في أغراض متنوعة منها المدح النبوى ومدح أى عنان والعنى بالله، وفي التسبيب والمناجاة الذاتية والفحشر والتائين والحكم، وكذلك مناجاة نزير للأماكن المقدسة خلال أدائه فريضة الحج، مع إشارات تاريخية واستطرادات لاتخلو من دلالات عن أحواله النفسية وفوائد معرفية وأوراد أيضاً جملة من رسائله السلطانية والأخوانية وختم المجموع برسالة موضوعية في حسن تدبير شؤون الحياة سعياً «رسالة السياسة» تخللها توجيهات ومواعظ.

كما ذكر أهم ما اضطلع به من مهام حيث تولى منصب الكتابة في دولة بني الأحرر وقام بمهام السفارة وتدمير بيت المال، وتعرض بعد عز لنكتبه ومصادرة أمواله، حتى تشفع فيه ملك المغرب، فانتقل إلى المغرب ولقي التكريم والاجلال واستقر فترة بسلا. وبذل ما وسعه الجهد لصالح الملك المخلوع من ملكه بالأندلس، أي عبد الله بن أبي الحجاج، حتى استعاد ملكه فأكرم ابن الخطيب على إخلاصه، إلا أنه تعرض لمكائد. ولم يذكر شيئاً عن أحواله بعد سنة 771 هـ والظاهر أنه في هذه السنة أنهى كتابة ترجمته الذاتية.

والملاحظ أنه لم يتحدث عن حياته العاطفية وما عرفه من مكائد وصراع كان قائماً على أشهده وعاش غماره وكابده، ولم يذكر الشخصيات التي كانت تنافسه أو تناصبه العداء، كما لم يذكر شيئاً عن أحوال طفولته إلا ما تعلق ببداية تعلمه وأحوال أسرته ووفاة والده الذي عاش في كنفه حتى تولى ابن الخطيب منصب الكتابة.

ولم يلتزم فيها الترتيب الزمني أو تنسق الأحداث فقدم ماتولاه من مناصب وأخر ذكر مصادر ثقافته وبداية تعلمه، وكذلك تاريخ ميلاده الذي أنهى به ترجمته ويبدو أن مقدمه كان يراه أهم وربما بكيفية غير شعورية. خصوصاً أنه من الذين تمرسوا بالكتابة التاريخية وهو في ترجمته الذاتية يما临 العلماء والأدباء الذين تقدموه من حيث ايلاء الاهتمام للجانب العقلي وتعدد المهام والنجزات، وضغط فترات زمانية مديدة في عبارات مجملة. وأطال ترجمته بإيقحام بعض أشعاره ومكتباته ومكتبات الآخرين له، ولم يجرؤ على التصریح

بعيوبه أو أخطائه، واعتمد في أسلوبه على التقرير وعلى استعمال التعابير البلاغية وانتقاء ألفاظ قاموسية، فأسلوبه يتصف بالقوة والمنانة الصياغية، وتنقصه العذوبة والسلامة والشفافية والتوصير المشوق مما يمكن أن يشد القارئ إليه ليشاركه أحاسيسه ومشاعره أو يمتعه بما يعرضه منها أو يمدّه بخبرات عن واقعه ومن كانت له صلة به سلباً أو إيجاباً ويبدو أن هذا مرتبط بالخلفية الفكرية والسياسية التي وجهته وكذلك بقيم العصر الجمالية.

6 — الترجمة الذاتية للجزري كأغلب ما عند العلماء إخبارية حيث أولى اهتمامه لذكر مولده الذي حدده بليلة السبت 25 رمضان سنة 751 بدمشق وبيان ماتلقنه من علوم بدء بحفظ القرآن الكريم ودراسة الحديث والفقه وعلوم اللغة وخاصة البلاغة وتعمق أكثر في دراسة القراءات القرآنية كما ذكر تنقلاته إلى مصر حيث تعرض لظلم فأخذت منه أمواله وانتقل أيضاً إلى برصة وإلى بلاد ماوراء النهر وسمرقند وخراسان وغيرها كما زار الديار المقدسة. وأضطاع بمهام التدريس في البلدان التي زارها وتولى أيضاً القضاء. ومن منجزاته العلمية تأليف في القراءات والتفسير والحديث والفقه واللغة. واعتمد في أسلوبه على التقرير مع الإيجاز.

7 — الترجمة الذاتية للسخاوي ساقها بضمير الغائب كما فعل أبو شامة وابن سعيد المتقدماً الذكر، وأشار إلى أن أصله من سخا بلد غرب الفسطاط ومولده في ربيع الأول سنة 831، وفصل ذكر ماتلقنه واهم بذكر شيوخه حفظ القرآن تجويداً وقراءة ثم درس علوم اللغة بألفية ابن مالك، وألفية العراقي في مصطلح الحديث وكذلك الفقه والحساب والميقات والأصول والبيان والمنطق. كما ذكر تنقلاته من مصر إلى حلب وإلى مكة. كما بين مؤلفاته. وأغلىها شروح منها فتح المغيث في ألفية الحديث وشرح منظومة ابن الجوزي وشرح الشمائل للترمذمي سماه أقرب الوسائل وقد أطال في تعداد مصنفاته ومن قرظها من العلماء، كما أطال في ذكر شيوخه.

واضطلاع بتدرис الحديث مع براعته في علوم أخرى، وهذه الترجمة تقتصر على الجانب الفكري بطريقة الأحصاء والتعداد فهيأشبه بفهرس.

8 — الترجمة الذاتية للسيوطني ركز فيها أولاً على بيان الدوافع حيث اقتدى بالعلماء وبالمحدثين قبله والذين مألف أحد هم تاريخاً إلا ذكر ترجمته مثل عبد الغافر الفارسي في «تاريخ نيسابور» وياقوت الحموي في «معجم الأدباء» ولسان الدين ابن الخطيب في الاحاطة والحافظ تقى الدين الفارسي في «تاريخ مكة» وابن حجر في «رفع الاصغر عن قضاة مصر». وأبي شامة في «ذيل الروضتين» وأبدى فخره بأجداده وبوالده لما كان لهم ديناً وسلوكاً،

و خاصة والده الذي خدم العلم وترجم له في الحيز الذي خصصه للفقهاء في «حسن الحاضرة».

حدد مولده بيوم الأحد مستهل رجب سنة 849هـ ونشأ يتيمًا، بدأ تعلمه بحفظ القرآن ثم دراسة الفقه والأصول والنحو وذكر أنه رزق التبحر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعنى والبيان والبديع وصرح أن تحصيله لبعض العلوم أدنى من السابقة مثل الأصول والجدل والتصريف والإنشاء والترسل والفرائض والقراءات وأخرها الطب والحساب.

اضطلع بالتدريس منذ سنة 866هـ وبالافتاء سنة 876هـ وذكر مؤلفاته وقت تأليفه لترجمته حيث بلغت ثلاثة غير مالم يتمه أو تراجع عنه وأنه يشعر بقدرته على التأليف في كل موضوع بما يتطلبه من أقوال وشواهد وصرف نظره عن المنطق خصوصاً بعد أن افتى ابن الصلاح بتحريمه.

والجدير بالذكر أن السيوطي ترجم لنفسه ترجمات مختصرة في كتبه الخاصة بالطبقات والترجمة الجامعية هي التي وضعها بعنوان «التحدث بنعمة الله» في كتاب مستقل⁽²⁵⁾ استهلها بما رأه مسوغًا لكتابتها في نظره وهو الرغبة في شكر الله على ما انعم به عليه وذلك ماحدا بالعلماء قبله أيضًا في — تقديره — لكتابة تراجمهم الذاتية، كما أن هناك دافعا آخر وهو توجيه قرائتها لأخذ العبرة والتماس القدوة والاستفادة من التجارب والخبرات.

وتخالف ترجمته الذاتية المتضمنة في كتابه «التحدث بنعمة الله» عن التي وردت في «حسن الحاضرة» بما يأتي :

1 — ذكر فصلاً خاصاً بالفتاوی التي خالف فيها فتاوى والده لأنها لا يجوز كتم العلم والحق أولى أن يتبع : وأن مصنفاته بلغت 458 مؤلفاً، وهذا العدد قد يثير الاستغراب إلا أنه لا يستبعد لأن الكثير من مؤلفاته عبارة عن رسائل في صفحات معدودة وبعضها جمع وتلخيص.

2 — ذكر ماتعرض له من محن وإحقاد ويرون ذلك على نفسه بأن الكثير من الأعلام ابتووا بمثل ما ابتلى به من حقد الآخرين، وأورد حديثاً للرسول يقول فيه «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون» وذكر بعض من لاقوا كيد الخصوم أمثال سعد بن أبي وقاص، والأمام مالك والأمام الشافعي، والأمام البخاري وغيرهم..

وترجمته الذاتية في «حسن الحاضرة» تعريفية اخبارية حالية من تقديم صورة عن مشاعره وواقعه أحداها وأشخاصا واقتصر فيها عن مراحل تعلمه وماتلقاه من معارف وماقام به من تنقلات إلى الشام والحجاج واليمن والهند وغيرها، وما اضططلع به من مهام وألقه من مصنفات أما التي وضعها مستقلة بكتابه المشار إليه فقد نحا فيها منحى دفاعيا لا تخلو من تقديم لمحات عن مشاعره وموافقه واحتياراته، فكشف عما كان يجري في مجتمعه من أحداث وصراعات وما كان يأخذ باهتمام الناس في حياتهم وما كان يقوم بين العلماء من منافسة وصراع ولم يكن من أجل تحقیقات علمية أو اختلاف وجهات النظر وإنما كان بذوافع يبدو أنها حقد وحب الظهور ومحاولة إلحاد الفشل من ظهر تفوّه.

وهو يعتمد في أسلوبه على التقرير وعلى الاختزال الرمزي والاقتباس من القرآن والحديث وتضمين أقوال الآخرين وليس فيه تكلف أو استطراد بل بساطة ويسر وقصر الجمل مع متانة التركيب.

٩ — الترجمة الذاتية للمقرئي أخبارية قصد منها تعريف أهل المشرق خاصة بنفسه. وبيان المناسبة التي حدثت به لتأليف كتابه «فتح الطيب».

فقد اورد في مقدمة المجلد الأول بعض أخباره وأحواله، وذكر في المجلد الخامس بعض ما يتعلّق بأسرته وفي المجلد الرابع صلة أسرته بتلمسان وموالده بها وبداية تعلمه وفارقها لأول مرة وسنة 24 سنة قاصدا مدينة فاس، وإن لم ينقطع عن زيارتها إلا بعد أن رحل إلى المشرق سنة 1027 هـ

ويبدو أن مقادراته المغرب إلى المشرق لم تكن اختياراً محضاً ولكن نتيجة مكائد من خصوصه سدت أمامه طريق العيش الهنيء، وهذا أبدي أسفه عن مفارقه المغرب وأسهب في بيان محسنه وشدة تعلقه بطبيعته ومفاتنه. ووصف أحوال الرحلة ومشاعر الغربة تزيد في اذكيائها، مع ما يعيشه ركوب البحر من الاحساس بضآلّة الانسان، ولم تفتر هذه المشاعر حتى وصل إلى مصر التي ذكرته بروعة بلده مما أدخل عليه بعض الطمأنينة وهذا يقول : «فشفينا برأيتها من الأوجاع وشاهدنا كثيرا من محسنها التي تعجز عن وصفها القوافي والاسجاع».

ثم قصد البقاع المقدسة سنة 1028 هـ وفي كل موقف ومشهد تثور عواطفه الصادقة فتفيض بأشعار تناسب المقام مما يدل على كثرة حفظه من ناحية ومن ناحية على صدق أحاسيسه وحدة مشاعره وبما يقدمه من مناجاة وخواطر من ذلك قوله : «ولما سلمت على سيد الأنام عليه من الله أفضل الصلاة وأذكى السلام، ذبت حياء وخجلًا

لما أنا عليه من ارتكاب ما يقتضي وجلا، غير أنني توسلت بجاهه عليه السلام في أن أكون من وضع له وجه الصفح وجلا» في هذا ما يرهن على صدق المشاعر وما يكشف عن خفافي النفس واعتراف صريح بالمساوىء في مقام لا تصح فيه المواربة فأطلق العنان لما في مكتونه معيراً أيضاً بأشعار رائقة.

قصد بعد ذلك مصر ثم توجه إلى بيت المقدس ولم تكن مشاعره لتفتر أمام معالم المسجد الأقصى. ولكن الحنين كان يشده إلى الحجاز فحج خمس مرات وكان يمكث لاملاء الدراس في مكة والمدينة تبركا ثم لازم التدريس في الأزهر بمصر منذ سنة 1037.

وتشوقه إلى البقاء الطاهر في الحجاز والقدس مما يدل على قوة الشعور الديني وعمق الإيمان وإخلاص في العقيدة وحب في خدمة العلم، ولعل رجالات المغرب أكثر تشوقاً إلى تلك المنازل المقدسة لبعدهم عنها ولما لها من مكانة وعملاً بما ورد من أحاديث مرغبة في التطلع إلى المجاورة بها.

انتقل المقربي إلى دمشق التي ذكرته بوطنه بما لها من مزايا طبيعية وأورد من الأشعار في وصفها ما يدل على شدة انفعاله وتأثيره بمناظرها. واتصل هناك بأحمد بن شاهين الذي سبق أن تعرف عليه في مكة وأحسن إلى المقربي واستضافه وتوطدت الصلة بينهما فأدرك ابن شاهين ما للمقربي من تضليل وسعة المعرفة وهذا اقترح عليه تأليف كتاب «فتح الطيب» فاعتذر المقربي وأبدى قصوره على الاضطلاع بهذه المهمة ويدو أن ذلك لأسباب نفسية ومعرفية، فهو في حالة لا تستمع له بالتركيز والتفرغ نظراً لما كان يعانيه من آلام الغربةخصوصاً بعد أن قضى هذه المدة في الشرق وكذلك ليس بين يديه مايلزم من مراجع ومصادر، إلا أن صديقه ألح عليه. فلم يجد المقربي مندوحة، فشرع في تأليف الكتاب بعد أن غادر الشام إلى مصر التي استقر بها لظروف لم يكشف عنها. وبين خطبة كتابه وهي قسمان تناول في الأول الأندلس جغرافياً وبشرياً والثاني أخبار ابن الخطيب. (توفي المقربي بمصر سنة 1041 هـ)⁽²⁰⁾

2 — الصنف الثاني : السير الذاتية

كتابها من المتصوفة أو من السياسيين الأدباء، أو من العلماء الأدباء.

أ — السير الذاتية للمتصوفة.

1 — أبو حامد الغزالي.⁽²¹⁾ أكثر المتصوفة في بعض مصنفاتهم من الحديث عن أحوافهم الخاصة وسلوكهم وأقربها إلى نوع السيرة الذاتية كتاب النقد من الضلال للغزالى وكتاب لطائف المن و الأخلاق للشعراوى.

فالغزالي من أعظم الشخصيات في الفكر العربي الإسلامي فتح عينه على التصوف إذ كان والده من السالكين هذا المسلك وكذلك كان مرييه الذي كفله بعد وفاته أبيه. ولاشك أن هذه النشأة كان لها تأثير في بناء شخصيته فكريًا.

بدأ تعلمه بحفظ القرآن وجملة من الأحاديث البوية ثم درس الفقه وعلم الكلام على إمام الحرمين، وظهر نبوغه وأبان عن مقدرة فائقة في التحصيل فاطلع على الفلسفة بروعها وأدرك التناقض الحادث بين التيارات الفكرية التي يموج بها عصره من فقهية وكلامية وفلسفية وصوفية. مما ساهم في تشكيل فكره وأثار انتباذه وايقظ فيه حب البحث عن الطريق الأجدى والوقوف على السبيل الأصوب، فأبدى أولاً تبرمه من تقسيمات الفقهاء وتفرعياتهم وأدلةهم التي لا تقنع واشتد طموحه لادراك الحقائق اليقينية يقول : «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريغان عمري غريزة وفطرة من الله وضعنا في جبلتي لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عنى رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد المروثة»⁽²⁸⁾ وهكذا لم يشبع فضوله ما واجده أيضا عند المتكلمين والفلسفه أو الباطنية. وتولى التدريس في المدرسة النظامية (بعد اتصاله بنظام الملك ووزيره الب أرسلان وابنه ملك شاه) وكان ذلك سنة 484 هـ. فعمق دراسته للفلسفة بمحكم المهنة كما بلورها الفلاسفة المسلمين قبله. ووضع كتابه «مقاصد الفلسفه» ثم أظهر كثيرا مما تبين له أنه أخطاء أو ثغرات في ماكتبه فوضع كتاب «تهافت الفلسفه». وبعد أربع سنوات من التدريس ترك النظامية بعد أن شعر، بأن الشك سد عليه كل منفذ للعمل واستوات عليه الحيرة واعتراه شوق عارم لادراك الحقائق ولكنه كان يعيش في داخل نفسه صراعاً بين متطلبات الحياة ومزايا المنصب وما كان يحيط به من مكانة وبين الشوق لمعرفة مصير الإنسان وحقيقة وجوده والقوى المتحكمة في الكون. يقول :

«اصمم العزم على الخروج من بغداد ومقارفة تلك الأحوال يوما وأحل العزم يوما وأقدم فيه رجلا وأؤخر عنه أخرى لاتصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة إلا ويحمل عليها جند الشهوة فيفترها عشية..»⁽²⁹⁾ وأخيرا استقر رأيه على مقارفة بغداد والرحيل إلى الشام ومكث بها ستين وأقبل على الخلوة والتبعيد والتأمل ثم رحل إلى القدس والمحاجز وهكذا دام على ترويض النفس والتأمل مدة عشر سنوات وانتهى إلى أن المعرفة الحسية والعقلية ليست معرفة يقينية وتبين له بطلان المذاهب الكلامية والفلسفية والباطنية وما عليه كل فريق من شطط وأن طريق الصواب الحق هو طريق الصوفية.

وبهذا فما عبر عنه من سيرته الذاتية في كتابه المقدّم من الضلال يعتبر صورة لحياته

الفكرية والروحية المضطربة وصورة لانماط التفكير في عصره. وهي على شكل الاعترافات وتتمثل رحلته من مرحلة الشك إلى مرحلة اليقين في نظره، وقد وضعها في سن تقارب الخمسين من عمره بعد أن ألف جل كتبه مما منحها ميزة خاصة في أسلوبها ونظرة كاتبها القلقة، والدافع المباشر لكتابتها — كما صرخ بذلك — هو رغبة أحد أصدقائه في إدراك غاية العلوم وأسرارها ومتانطوي عليه المذاهب المختلفة في عصره من صواب أو خطأً للوصول إلى الحق، كما يتضح أيضاً من خلال حياة الغزالي وتكوينه ومصادر ثقافته وتربيته وواقع عصره مامن شأنه أن يكون حافراً نفسياً أو جد فيه استعداداً قوياً للبوح — بعد أن عرف من التجاوب الكبير فوصل إلى الغاية التي اطمأن إليها.

عاد إلى موطنـه في آخر حياته حيث انصرف إلى الوعظ والعبادة حتى أدركـه الوفـاة سنة 505⁽³⁰⁾.

2 — عبد الوهاب الشعراـي⁽³¹⁾ المتوفـي 973 هـ

من أهمـ الحواـفـرـ التيـ كانتـ وراءـ كتابـهـ لـسـيرـتهـ الذـاتـيةـ «ـلـطـائـفـ المـنـ»ـ هيـ :

- 1 — الرغبةـ فيـ أنـ يقتـديـ بهـ النـاسـ وـهـذاـ غـرضـ تـهـذـيبـيـ أـخـلاـقيـ.
- 2 — الرغبةـ فيـ دـوـامـ شـكـرـ اللـهـ عـلـىـ نـعـمـهـ لـأـنـ فـيـ الـكـتـابـ دـوـامـ شـكـرـهـ مـاـبـقـيـتـ فـيـ حـيـاـةـ كـاتـبـهـ أـوـ بـعـدـ وـفـاتـهـ.
- 3 — وضعـ مـنـاقـبـهـ وـأـخـلاـقـهـ تـحـتـ نـظـرـ الرـاغـبـينـ فـيـ مـعـرـفـتـهـ دـوـنـ أـنـ يـضـطـرـوـاـ إـلـىـ مـعـرـفـتـهـ مـنـ مـرـجـعـ غـيرـ مـاـشـهـدـ فـيـ عـلـىـ نـفـسـهـ حـيـثـ لـأـجـالـ لـحـصـولـ تـرـيـدـ أـوـ نـقـصـ،ـ وـبـهـذاـ يـعـرـفـ أـهـلـ عـصـرـهـ وـمـنـ بـعـدـ مـكـانـتـهـ الـحـقـيقـيـةـ وـفـضـلـهـ وـحـقـيقـةـ أـمـرـهـ.
- 4 — ومنـ الـبـوـاعـثـ أـيـضاـ أـنـ اـقـدـىـ فـيـ ذـكـرـ حـيـاتـهـ وـأـحـوالـهـ بـنـ سـيـقـهـ مـنـ الـاعـلامـ أـمـثالـ المـحـدـثـ عـبـدـ الـعـافـرـ الـفـارـسـيـ،ـ وـالـعـمـادـ الـاصـفـهـانـيـ وـلـسـانـ الدـيـنـ اـبـنـ الـخطـبـ وـأـبـيـ عـبـدـ اللـهـ الـقـرـشـيـ،ـ وـشـيـخـ أـبـيـ الـرـيـعـ الـمـالـقـيـ وـتـقـيـ الـدـيـنـ الـفـارـسـيـ وـأـبـيـ حـيـانـ وـابـنـ حـجـرـ وـجـلـالـ الدـيـنـ السـيـوطـيـ.

دفعـ عنـ نـفـسـهـ تـهـمـةـ الفـخرـ بـهـذـاـ الـعـلـمـ،ـ وـإـنـماـ غـرضـهـ هوـ شـكـرـ نـعـمـةـ اللـهـ عـلـيـهـ،ـ وـمـاـحـظـىـ بـهـ مـنـ مـزاـيـاـ أـمـاـ النـقـائـصـ فـلـمـ يـذـكـرـهـ لـأـنـهـ فـيـ نـظـرـهـ أـقـلـ شـائـأـنـاـ أـمـامـ المـزـاياـ وـالـنـعـمـ.ـ أـمـاـ بـنـاءـ هـذـهـ السـيـرـةـ فـهـيـ تـتـكـونـ مـنـ مـقـدـمةـ وـمـدـخـلـ وـسـتـةـ عـشـرـ بـابـ أـجـمـلـ فـيـ المـدـخلـ مـضـمـونـ كـلـ بـابـ.ـ ثـمـ صـارـ يـفـصـلـ فـيـ كـلـ بـابـ مـأـجـمـلـهـ.ـ وـهـكـذـاـ يـشـعـرـ الـقـارـئـ أـنـ دـخـلـ بـهـ إـلـىـ عـالـمـ الـمـتصـوـفـ بـذـكـرـهـ لـأـحـواـلـهـ وـمـخـاـصـةـ عـلـىـ الـخـواـصـ الـذـيـ وـرـثـ عـنـهـ الشـعـرـانـيـ طـرـيقـهـ فـيـ الـتـصـوـفـ وـمـاـتـطـلـبـهـ مـنـ أـخـلـاقـ وـفـيـ مـقـدـمـتـهـ دـوـامـ الشـكـرـ بـالـقـلـبـ وـالـجـوارـحـ.

وفي نطاق محور الذات يرى أن من نعم الله عليه شرف النسب الذي ينتهي إلى محمد بن الحنفية ابن الإمام علي، وأن جده السابع كان من ملوك تلمسان، ولعل في هذا ما يريد أن يدل به على علو قدره ومكانته وإن لم يصرح بذلك، لأن غالباً ما يكون ذكر النسب سبباً في هذا وخاصة حينما تكون للأجداد مكانة دينية أو دنيوية.

وما تختص به هذه السيرة ذكره لبعض أحوال طفولته التي كثيراً ما يتم إغفالها، ولا يعتد بالشخص إلا بعد البلوغ، إلا ما يتعلّق ببداية حفظ القرآن وتعلم القراءة على اعتبار أن ذلك طريق لحصول مقومات الرجلة. فقد حفظ القرآن وهو في سن ثماني سنوات وكان مواطباً على أداء الصلوات، وحفظه الله بسره فقد كان يسبح في النيل وأوشك على الغرق فيه فأنقذه بآن هياً له تمساحاً رفعه إلى سطح الماء دون أن يؤذيه، ومن ذلك أيضاً أن أحد الفسقة حاول الاضرار به فابتلاه الله بالجذام بعد سبعة أيام. هذه الذكريات عن طفولته اعتبرها من نعم الله عليه ومنها أيضاً تيسير انتقاله من الباية إلى القاهرة حاضرة العلم ليتسنى له أن يأخذ بحظ وافر منه، وبعد أن حفظ القرآن، حصل المتون المتداولة، كالأجرمية والألفية والتوضيح وجمع الجماع في العربية. وألفية العراقي في المصطلح، والتلخيص في البلاغة، وكذلك متون الفقه وتمكن من تلقى شروح هذه المتون على أشياخ أجياله نوء بعلمهم وعملهم وهذا في المرحلة الأولى. ثم توسيع في التحصيل بإقباله على دراسة كتب التفسير والحديث والتصوف، منها : تفسير البغوي على شهاب الدين الشستي، وشرح البخاري على القسطلاني، ورسالة القشيري على الشيخ زكريا الأنصاري، وبهذا تبين لنا مصادر ثقافته وقوامها علوم اللغة والدين والتصوف وأحوال أهله .

شرع بعد هذا التحصيل الواسع في الجاز تأليف أغلهما في الشريعة مثل البحر المورود في المواثيق والعهود. والمنهج المبين في بيان أدلة المحتددين ومنها ما هو تلخيص لكتب غيره مثل لواقع الأنوار القدسية في مختصر الفتوحات المكية وختصر قواعد الزركشي، وقد أجاز علماء من المذاهب الأربعه كتبه واثروا عليها. كما انتقدتها البعض محاولة للنيل منها بدافع الحسد.

إن تحصيله الواسع المتتنوع كان من الدوافع على السير في طريق التصوف وكذلك أحوال عصره وظروف نشأته. فصار يشعر بالتحرر وعدم الخضوع لأهل الوجاهة والمكانة الدينية متربعاً عن طلب الدنيا، ولهذا كره ما كان رائجاً في زمانه مما يدعوه بعض أهل الكيمياء وال술 من تحويل المعادن إلى ذهب، والثابت عنده من الكيميات متعلق بخواص الأجسام.

واعجابه بعالم التصوف وأهله دعاه للذكر كثير من الخوارق والأعاجيب التي حصلت لهم من القدرة على احداث تغيرات حقيقة في نظره — وحصولهم على نتائج عجز عنها أهل الكيمياء. مما يصعب التسليم به، والواقع ان الشعراي لم يكن يتحطّي الرؤية المعرفية لهؤلاء المتصوفة الذين اندفع في أجواههم الملية بالأعاجيب حيث ترأى لهم أشياء لا يستطيع أن يصرها غيرهم.

وبهذا قدم صورة عن معارفه ورؤيته للحياة و اختياره للتتصوف منهجا ثم بين عناصر أخرى وهي :

- 1 — تصوير لأحوال الأخلاقية والسلوكية مع الآخرين وتصرفاته مع المتصوفة خاصة.
- 2 — ذكر ماتين له من مكاشفات وماجرى على يديه من كرامات
- 3 — تقديم صورة لعدد من الشخصيات وبخاصة المتوصفة وذكر أهم ما هو مأثر عنهم من أقوال وأفعال تدل على ثقته بما يحكي عنهم أو ما شاهده منهم. مما يشير الدهشة والظاهر من ذلك أنه لا يخضع لما يشهده العقل المجرد أو الحواس من حقائق أو أوهام. مما يثير شغف القارئ لمعرفة هذا العالم الذي صنعته المتوصفة لأنفسهم في زمانه. تمثّل هذه السيرة بسهولة أسلوبها وتلقائية الأدلة بالمشاعر والتصورات الخاصة. مع مافيه من استطراد يقطع تواصل السرد، ويخلل بترتبط الأجزاء ويتخللها الاقتباس من القرآن والحديث، وتضمّن الأقوال والأشعار، والحكايات.

ب) السير الذاتية لرجال السياسة

لم يقبل رجال السياسة على كتابة سيرهم الذاتية إلا منذ منتصف القرن الخامس الهجري ولابعد قبل هذا إلا بعض الاشارات والروايات التي تنقلها كتب التاريخ مغروبة إلى الأمراء أو الوزراء والخلفاء ودعاة المذاهب واردة على أسمائهم مما يتعلّق بعض أحوالهم أو مباشرتهم لأعمال خاصة. والمقصود هنا برجال السياسة هم الذين تتضمن سيرهم الذاتية ما كان يتوافق مع حياتهم السياسية بالنظر إلى مكانتهم في تدبّر شؤون الدول أو الدعوة إلى مذاهب معينة، أما الأدباء الذين تقدّموا مناصب سياسية ولم تستغرق سيرهم الذاتية في الحديث عن تدبّر شؤون التنظيم والتسخير السياسي كابن حزم وابن خلدون قد وضعوا ضمن زمرة الأدباء. لغبّة هذه الصفة عليهم.

وقد تبيّن لنا مما تقدم في بداية هذا الفصل أن التراجم الذاتية أسبق من السير الذاتية (أي أن النوع اختصر أسبق من الفصل)

ومن أقدم السير الذاتية لرجال السياسة سيرة المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في المشرق وفي الغرب الإسلامي نجد سيرة عبد الله بن بلقين.

١ - سيرة المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي⁽³²⁾ (٣٩٠ هـ - ٤٧٠ هـ) وهي المعروفة «بسيرة المؤيد في الدين داعي الدعوة» والمؤيد هنا أحد دعاة المذهب الإسماعيلي الفاطمي وسيرته على شكل المذكرات، تناول فيها فترة من حياته في مجال الدعوة لهذا المذهب تبتدئ بسنة ٤٢٩ هـ وننتهي بسنة ٤٥٠ هـ ولا يتناول فيها أخباراً عن نشأته وأحواله ولا مصادر ثقافته وشيوخه، جرياً منه على عادة التستر المعروفة عن أصحاب المذهب المذكور وهي تضم الأعمال التي اقتضتها ظروف الدعوة ومتطلباتها من اتصالات بالأمراء والوزراء، وما لديه من مكائد واضطهاد، وكشف خلال ذلك عن أسرار ومؤامرات قل وجودها في كتب التاريخ أو لم ترد فيها بالمرة، وتزخر هذه السيرة بكثير من الوثائق كالخطب والمراسلات والمناظرات، وتتضمن الآيات القرآنية موجهة بطريقة هذا المذهب وكذلك ما ينسب إلى الرسول من أحاديث بكيفية اتباع المذهب الإسماعيلي، وفيها أيضاً بعض الأشعار المناسبة لسياق الموضوع وكانت تنقلاته من بلاد فارس إلى العراق ومصر والشام.

منظلق حديثه هو سرد لكيفية الاتصال بين المؤيد وبين الملك البويري أبي كاليجار بشيراز، وكان ذلك اثر ذيوع خبر المؤيد باعتباره أحد دعاة المذهب الإسماعيلي، وقد استطاع بما أوتي من قدرة على إقناع الملك أبي كاليجار باعتناق المذهب كما اقع الكثير من رجال دولته، إلا أن الكثير من السنين ظلوا معارضين، ونظراً لما كان بين العباسيين والفاطميين من صراع، فإن الخليفة العباسي رأى في ذلك خطراً إن استمر المؤيد في دعوته، ووجد من السنين سنداً فألب الرعية على أبي كاليجار وكذلك السلagleمة حكام آسيا الصغرى فاضطر أبو كاليجار أمام هذا الضغط إلى التخلص من المؤيد والذي شعر بالخطر فجأاً بنفسه، وفر قاصداً مصر، وقد بين المؤيد الظروف المباشرة، من ذلك تقلب بعض ندماء الملك وخوفهم على مراكزهم. كما أن المؤيد قام بترميم وإصلاح مسجد بالأهواز وأظهر فيه جهاراً مراسم الدعوة للفاطميين، مما جعل عامة أهل السنة يغضبون، وترعم قاضي شيراز الحملة ضد المؤيد، وهكذا توالي الضغط على أبي كاليجار بمختلف الوسائل فلم يجد بداً أن من التخلص من المؤيد وقد لقي أبو كاليجار حتفه بمؤامرة مدبرة من حاشيته بعد ذلك ولما وصل المؤيد إلى مصر بعد معاناة ومشقة وتستر من الرقباء. لم يجد مكاناً ينتظره من الخليفة الفاطمي المستنصر الذي انتقده انتقاداً صريحاً، ورغم هذا استمر المؤيد

في الدعوة حيث غادر مصر إلى الشام لاستئلاة حكامها، فحالقه التوفيق حيث استطاع أن يقنع البساسيري الذي اقتحم عاصمة العباسين بغداد سنة 450 وخطب للخليفة الفاطمي إلا أن ذلك لم يطل.

عاد المؤيد من الشام إلى مصر قبل دخول البساسيري بغداد ولم يذكر بعد شيئاً عن حياته حيث توقف سرد الأحداث.

وهذه السيرة تكشف بوضوح عن واقع الشيعة الاسماعيلية في بلاد فارس واتباعهم في بغداد والشام وكذلك عن مظاهر من عقيدتهم التي لا يريدون مكاشفة الآخرين بها إلا من أنسوا منه أنه سيقبلها. ومن ذلك قضية إكمال شهر رمضان بحيث يكون دائماً ثلاثة يوماً وسبعين تسعه وعشرين يوماً ووجوب طاعة الأئمة من نسل علي وتأويل القرآن بطريقتهم الخاصة ونسبة عدد من الأحاديث للرسول، وغير هذا مما تحفل به السيرة. كما تتضح الأساليب التي يتبعها الدعاة والحجج التي يعتمدون عليها لاقناع غيرهم. واتخذ سيرته أسلوباً يسوده السجع والتألق في اختيار الألفاظ وبناء العبارات بالصور البلاغية الدالة مما يكشف عن ثقافة المؤيد ومقدراته اللغوية الفائقة.

2 — السيرة الذاتية لعبد الله بن بلقين⁽³³⁾ المولود سنة 447 هـ. سيرته على شكل المذكرات، تكون من اثنى عشر فصلاً تناول في مضمونها ما يجب على المؤرخ المنصف أن يتحلى به من موضوعية وثقافة ثم كيفية قيام دولةبني زيري بالأندلس باعتبارها دولة آباءه وأجداده وقد فصل القول في ظروف نشأتها والعوامل التي أدت إلى قيامتها وأهم الحكام والأمراء الذين تعاقبوا على تدبير شؤونها وأعمالهم ومنتجاتهم وخلال ذلك أتى على ذكر ولايته هو وما وقع في عهده حتى تدخل المرابطون في شؤون الأندلس، وقد أسهب في هذا الغنصر الذي يشكل أكثر مادة الكتاب حيث ضم ستة فصول وجعل الأخير لأحواله الخاصة وتأمل واقع حياته وما آل إليه مصيره بنفيه إلى أغمات بجنوب المغرب. وهناك ألف سيرته هاته. بعد أن خلا إلى نفسه، وشاهد من الأحداث الجسم ما شكل دافعاً نفسياً قوياً لكتابته سيرته محاولاً بها دفع التهم والأقوایل التي قد تغيب عن أصحابها الحقائق كما أدركها وعايشها هو.

وتعتبر هذه السيرة ذات قيمة تاريخية هامة لما تحفل به من تفاصيل قل نظيرها في كتب التاريخ من الناحية السياسية والاجتماعية بالأندلس فقد بين المؤامرات والدسائس التي كان بعض الأمراء أو غيرهم يلمجاؤن إليها وأساليب السياسية التي كانت تمارس من الحكام

— السليبي ومنها الایحابي — وما كان مختلف الطبقات والأجناس من أدوار. كما بين العادات والتقاليد السائدة وأنمط الحياة المعاشرة وما يحدث في بعض المناسبات.

ونكتفي هنا بالإشارة إلى مؤامرة الوزير اليهودي أبي ابراهيم. ضد أحد الوزراء المسلمين ولد أبي العباس — وكان ذلك على عهد باديس بن حوس وهو أحد أجداد عبد الله. مازال هذا اليهودي يؤلب الملك عليه حتى انفرد بالتفوذ وضم الأموال⁽³⁴⁾ ومثل هذا كثير في سيرته مما يدل على مدى التناحر والمنافسة التي تحركها الاطماع الشخصية مما أدى إلى استفحال الفساد السياسي وعدم الانسجام والتعايش بين مختلف الفرق وما سهل على النصارى التدخل في أمور ملوك الطوائف وإذلاهم لدرجة دفع الجزية لهم.

وما يخص أحوال عبد الله في سيرته ما عرفته إماراة غرناطة في عهده ومن ذلك ما يبشره من أعمال داخلية أو خارجية مع جيرانه وخصوصه محاولا تقوية إمارته وضبط شؤونها وتحقيق السلام لها، كما أورد عبد الله تفاصيل عن الوجود المرابطي والأسباب المؤدية إلى دخولهم الأندلس. وذكر الملابسات التي أدت إلى عزل ملوك الطوائف ومنهم آخره صاحب مالقة. ولعل أهم ما يعبر صورة لأحواله الخاصة أيضاً ما ذكره عن خلعه ومصادرته أمواله يقول : «ثم أثنا الفقيه ابن سعدون من عند أمير المسلمين يقول : أحضر الأموال والأزمة بها فإن مؤملاً قد أخبره أنه ليس عندك درهم إلا بزمام وذكر — فقلت له نعم كان ذلك، قد تركته في داري، فإن أباح لي المسير بنفسي لاستخراج الكل وإنما فهذه أمي تتول ذلك مع ثقاته حتى لا يغادركم منه خيط»⁽³⁵⁾ واستمر في ذكر تفاصيل استخلاص أمواله منه بما يدل على عدم التساهل معه في ذلك.

وما أورده أيضاً نفيه وما اعتبره من مشاعر ومالقيه من معاملة، وخاصة من أحد قادة يوسف بن تاشفين — وهو قارور — الذي أساء معاملة عبد الله وحاسبه محاسبة صارمة حتى على أصغر الأشياء وأقل ما يملكه ومن ذلك خاتم ذهبي يقول عبد الله : «ومن أعجب الأشياء أنه عند حلولي بمكتنasa كتب إلي (قارور) يقول لي : أخبرني عن الخاتم الذي خرجت به — وقد كنت أخرجته من أصبعي وبعثه بعشرة دنانير فراجعته نعلمـه (كذا) بحاجتي إلى ثمنه. وإنما أراد أخذـه لثلا يبقى لنا شيئاً، ويقتضـي الجميع، وعلمـ أنه لم يـقـ لي غيره»⁽³⁶⁾

والسيرة تمثل في أسلوبها شخصية عبد الله الذي لم يكن من رجال الأدب وهذا كثيراً ما تثنونـه العبارة السليمة واستعمال اللائقـ من الأنفاظـ والضمائرـ. وتردـ فيه ما كان رائجاً في الأندلسـ من تعبـيرـ مخلـيةـ ومصطلـحـاتـ ونقلـ فيهاـ كثيرـاً من أقوالـ الآخـرينـ بما

ورد فيها من حوار أو حكايات إخبارية، وكذلك بعض الآيات والأحاديث، ولكن مع ذلك فيها ترابط بين العناصر مما يدل على وحدة المشاعر وقوة الانفعال واستكمال تصور الأحداث معتمداً على السرد والوصف والتحليل والنسخة المحققة مبتورة من أوهاها وهي لحد الآن النسخة الوحيدة المداولة.

3 — السيرة الذاتية لأُسَامَةُ بْنُ مَقْدَسٍ⁽³⁷⁾ (488 هـ — 584 هـ)

هذه السيرة على شكل الذكريات وهي ذلك النوع من السير الذاتية التي لا يراعي فيه الترابط بين الأجزاء أو التسلسل التاريخي في وقوع الأحداث. ويكون القصد منه استعادة جملة من التجارب والأعمال والمشاعر حسب تداعي المعاني وتoward الخواطر، وهناك عدة حواجز من الناحية النفسية حدثت بأُسَامَةُ لانجاز هذه السيرة، وهي :

1 — الرغبة في تسجيل ما شاهده وما فيه من مصاعب وكابده من تقلبات حافلة بالخبرات التي قلما سجلها من هم في مثل مكانته.

2 — عاش في بيئه كثيرة الاضطراب والقلق والتي كانت بلاد الشام — خصوصاً — مسرحها من تطاحن الأمراء والأسر الحاكمة ثم هجمات الصليبيين التي لم يسبق لها مثيل، وكذلك ما كانت عليه أحوال مصر في آخر عهد الفاطميين بها.

3 — صلة أُسَامَةُ بأمير شهم بطل وهو صلاح الدين الأيوبي الذي أكرم أُسَامَةَ وأعجب بشجاعته وأدبِه، ورغبة من أُسَامَةَ في تقديم خلاصة تجاريته لهذا السلطان البطل أهداه كتابه الاعتبار ليدرك منه السلطان ما يماثل تجاريته في ركوب الأخطار واقتحام الصعاب بجرأة. وإن ذلك لا يلقي بالبطل الشهم الشجاع تحت برائن الموت لأن للموت أجيلاً، ولا يمكن أن يحل بأحد مهما بلغت جرأته قبل الأولان المعين له يقول أُسَامَةُ : «فلا يظن ظان أن الموت لا يقدمه ركوب الخطرو لا يؤخره شدة الخدر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال وتقحمت الخاوف والأخطار ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضررت بالسيوف وطعنت بالرماح، وجرحت بالسهام..»⁽³⁸⁾.

4 — كتب أُسَامَةُ ذكرياته في سن متاخرة حيث يشتند حين الانسان لتذكر أيامه السالفة واستعادة أمجاده، ويضاف إلى ذلك أنه أديب رقيق الاحساس متعدد على الأفضاء بمشاعره يقول : «وأنا من الأجل في حصن حصين إلى أن بلغت تمام التسعين.. استرجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محظوظ اللذات»⁽³⁹⁾.

ومضمون هذه الذكريات ينصب على محور الذات وعلى أبعاد موضوعية وهكذا تحدث عن بعض ظروف نشأته وتكونيه وأحوال أسرته ومشاركته فيه لتدبير أمور سياسية في السلم والحرب وقام به من تنقلات وما قاساه من أحوال، كما رسم صوراً قلمية لمشاهداته أو ما حكى له من أخبار شخصيات مختلفة، ولم تخال ذكرياته من ايراد بعض أخبار النساء مما يدل على مدى تقديره للمرأة، ومن ذلك ماذكره من مواقف أمه إبان الأزمات، كما صور مشاهد عن هواية الصيد التي كان يمارسها وذكر وسائله وأدواته وطريقه.

كما أورد كثيراً من المعلومات الخاصة بشخصيات سياسية في زمانه في الشام ومصر، وما كان من مؤامرات وصراعات، كما تحدث عن أشخاص من عامة الناس و厶اعر ف به كل شخص حسب سياق الحديث من وفاء أو خيانة أو شجاعة أو جبن أو كرم أو بخل.. ولهذا فذكرياته هذه حافلة بذكر المآذج البشرية على اختلاف نزعاتها وأمزجتها، مما جعلها ذات أهمية في توسيع معرفة القارئ بالحياة وما ترخر به، كما تعتبر هذه الذكريات مصدراً فيما يتعلق بالحروب الصليبية، وأحوال الصليبيين أثناء وجودهم في المشرق، وعن عاداتهم وتقاليدهم وظروف عيشهم ومدى تأثيرهم بالحضارة العربية كل ذلك بتفاصيل مفيدة قل نظيرها في مصادر أخرى.

وأما أسلوب هذه السيرة فقد تباه كثير من الدارسين إلى ما فيه من خصائص استرعت انتباهم لكونه مخالف لما عهد من أسلوب أسامة من قوة ومتانة وصحة وجمال ورقه في الشعر والنشر يقول يوهان فوك : «وهكذا يجري الفارس العربي المشهور أسامة بن منقذ على الحدود والقوالب العربية المتوارثة بيد انه في الحديث عن ذكرياته وغامراته يخرج عن قيود اللغة الأدبية، فيكتب بأسلوب عربي طبيعي بسيط ييلو فيه كثير من الطابع العام المتعارف عليه اليوم في اللغة العربية السورية»⁽⁴⁰⁾ ويقول بروكلمان : «ومع أنه كان متتمكنا من الصناعة اللفظية الشائعة في عصره على ما تشهد سائر كتبه، فقد ازدرها بالكلية في مذكراته هذه إنه هنا يقص علينا في لهجة قصصية بسيطة مختلف مغامراته في الحرب والسلم والطرد»⁽⁴¹⁾، ويقول حسن عباس : «بهذا الأسلوب البسيط القريب إلى اللغة الدارجة كتب أسامة مذكراته ليتحقق لها الديوع والانتشار بين العامة والخاصة على السواء فيجعل منها سيرة شعبية تداولها الأيدي وتنقلها الألسن»⁽⁴²⁾ كما لاحظ فليب حتى ما كان عليه أسلوب الذكريات بقوله : «مخطوطتنا هذه حافلة بالالغاز التحوية الصرفية التي لا يمكن أن يكون مؤلفها واضح كتاب البديع وصاحب ديوان قد ارتکبها وهي فضلا عن ذلك مشبعة بالعبارات العامية (ولاسيما في الجمل المقتبسة والمحكية) مما يدل على أن المؤلف وهو شيخ ضعيف أمني كتابه شفاهها وأن أيدي الناسخ أو النساخ عبّثت به»⁽⁴³⁾

من خلال هذه الملاحظات ندرك سبب تسرب العافية إلى أسلوب أسامة أو مافيه من بساطة أو خطأ وبأن التعبير الرفيع بالفصحي قد لا يتأتى في بعض المواقف وعن بعض التجارب حين يقصد الكاتب مشاكلة الواقع أو أن تداول الذكريات بين أشخاص مختلفي الثقافة أدى إلى إحداث تغييرات في أسلوبها والتزول بها إلى مستوى العافية في بعض التعبير وإقحام الأخطاء فيها بالإضافة إلى هذا فإن الأشعار الواردہ فيها لم يلحقها سوء، وكذلك وجود مصطلحات حربية وإدارية عربية أو معربة واعتمد الكاتب على السرد والوصف وال الحوار حسب مقتضيات الأحوال كما استعمل التقرير والتحليل.

وقد حظيت ذكريات أسامة بعناية المستشرقين خاصة، مما يدل على أهميتها، فقد نشرها : ديرنبوغ Derenbourg لأول مرة عن المخطوطة الوحيدة بالأسكوريال سنة 1884 وترجمها إلى الفرنسية كما ترجمها إلى الألمانية جورج شومان Georg Shuman سنة 1905 وترجمت أيضا إلى الإنجليزية والدنماركية والبولونية⁽⁴⁴⁾ «ولم يترجم كتاب عربي إلى اللغات الأوروبية المختلفة باستثناء القرآن الكريم مثل ماترجم كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ وكتاب طوق الحمام في الألف والألاف لابن حزم الأندلسي»⁽⁴⁵⁾.

ح) السير الذاتية للعلماء والأدباء

١ — السيرة الذاتية لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم⁽⁴⁶⁾ (384 — 456)

هي من الاعترافات «التي يروي فيها المؤلف موافق نفسية أو عاطفية لا يعترف بها وأضعوا الترجمة الذاتية عادة»⁽⁴⁷⁾

وأهم الموارف التي حدثت به لكتابه هذه الاعترافات هي :

١ — دافع ظاهر وهو رغبة أحد أصدقاء ابن حزم في معرفة أسرار عاطفة انسانية جليل وهي «الحب» لما علمه هذا الصديق من ابن حزم من شمول معرفي وعمق التجارب والخبرات بأحوال الناس رجالاً ونساء بحكم معارفه في حياته من معاناة وتقلبات بين يسر وعسر، ولم يفصح عن هوية هذا الصديق، وهو في مثل هذا الموقف كأبي حامد الغراوي في كتابة «المنقد من الضلال». وهذا في الواقع ليس إلا تبريراً موضوعياً. فالدافع في أصله نفسي ذاتي. لأن ابن حزم ذاق ألواناً من الحب وتعرف على عالم المرأة معرفة دقيقة إذ على أيدي النساء كانت تنشئته وتعلمه يقول : «ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيري لأنني رأيت في حجورهن ونشأت على أيديهن، ولم أعرف غيرهن ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب»⁽⁴⁸⁾

2 — إن تعرض ابن حزم للنفي من موطنه قرطبة إلى المرية ثم إلى شاطبة وأفول نجمه ويسأله من المناصب السياسية قد جعله يرکن إلى نفسه ويتأمل مصيره ويستعيد أيامه العابرة مما يبعث في النفس شوقاً عارماً لذكر أيامه وصفاتها ومن أغلى ما يعلق بالوجودان عاطفة الحب.

3 — واقع المجتمع الأندلسي التميز — نسبياً — حيث كان للمرأة دورها في مختلف شؤونه، وللحب حضور قوي يقول طه حسين عن هذا «.. والظاهر أن الحب كان خطيراً حقاً في إسبانيا المسلمة أيام ابن حزم وليس أدل على ذلك من أن هذا المحدث الفقيه المتكلم الفيلسوف المنفي من أرض وطنه قد فرغ لكتابه رسالة فيه»⁽⁴⁹⁾

فهذه جملة دوافع نفسية واجتماعية وهناك أيضاً بواعث فكرية آتية من اطلاع ابن حزم وسعة ثقافته وعمقها مما اكسب هذه الاعترافات مكانة مرموقة في الأدب العربي وفي الآداب العالمية.

وقد بني هذه الاعترافات بناءً فنياً مزج بين الشعر والنشر، متassك الأجزاء مما يدل على نضج التجربة في نفسه واقتراح تصورها وجعلها في مقدمة وثلاثين باباً، وقسم الأبواب الثلاثين إلى ثلاثة أقسام هي :

1 — أصول الحب وتضم عشرة أبواب

2 — أعراضه وعلاماته في اثنى عشر باباً.

3 — آفات الحب التي تعرّيه في ستة أبواب، وخاتمة في بابين في قبح المعصية ووجوب التعفف.

وكل الأبواب مستمدّة من تجاربه وخبراته ومشاهداته أو مما علمه وتلقاه ويصرح بذلك قائلاً : «إنما اقتصرت في رسالتي على الحقائق المعلومة التي لا يمكن وجود سواها أصلاً»⁽⁵⁰⁾ وبؤكد أيضاً : «والذي كلفتني لأبد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتي وأدركته عنياتي وحدثني به الثقات من أهل زمانٍ»⁽⁵¹⁾ والخطاب موجه للصديق الذي طلب منه الخوض في هذا الموضوع. وما أورده من تجارب ذات طابع انساني كما أن التحليلات التي تناول فيها نفسية المرأة على اختلاف أوضاعها ومراحل عمرها، دقيقة، مما جعل هذه الاعترافات محاولات مبكرة في علم النفس يقول زكريا ابراهيم : «قد يعجب القارئ حين يرانا ندخل ابن حزم في عدد علماء النفس ولكنه لوقرأ بعين الاعتبار رسالة ابن حزم في الألفة والالاف لما تردد في إدراج تلك الرسالة ضمن المحاولات المبكرة في علم النفس»⁽⁵²⁾.

ونظراً لصدق التجارب المعروضة ونفاذ الرؤية، انفردت هذه الاعترافات وظهرت تفوقها على مختلف الكتابات التي انجزت عن هذه الظاهرة الإنسانية في التراث العربي، مما جعل هذه الاعترافات محط اهتمام الدراسين الأجانب خاصة، ومع أن عدداً من الكتاب قد تحدثوا عن الحب وافردو له كتاباً أو رسائل إلا أن ما انجزوه كان في اتجاه التجميل وضم الأخبار إلى بعضها مثل ما نجد عند الجاحظ المتوفى سنة 255 هـ ألف رسالة عن النساء وأخرى عن القيان كما نجد محمد بن داود المتوفى سنة 296 هـ ألف كتاب الزهرة ثم محمد الوشائ ألف كتاب الموسى أو الطرف والطرفاء. كما ألف آخرون بعد ابن حزم في موضوع الحب إلا ابن حزم امتاز عنهم لما سبق بيانه⁽⁵³⁾.

2 — السيرة الذاتية لعبد الرحمن ابن خلدون⁽⁵⁴⁾ (732 هـ — 808 هـ)

تعتبر السيرة الذاتية لابن خلدون من أتم السير في الأدب العربي القديم وإحاطتها بشخصية كاتها وأحوال عصره ولا يماثلها غير السيرة الذاتية لعمارة البيني المتوفى سنة 569 والمعروفة باسم «النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية»⁽⁵⁵⁾ وكذلك سيرة محمد بن طولون المتوفى سنة 953 هـ وهي : «الفلك المشحون في أحوال محمد بن طولون»⁽⁵⁶⁾ وعمارة كان أدبياً وقد اشتراك في التأمر على صلاح الدين مع جماعة وتم كشف مؤامرتهم فصلبهم الأمير وفيهم عمارة هذا. وابن طولون كان مؤرخاً محدثاً اضطلع بالتدريس في الشام. ومع هذا اعتبر طه حسين سيرة ابن خلدون أول سيرة في الأدب العربي⁽⁵⁷⁾، ولم يكن في هذا الحكم مصيبة.

وسيرة ابن خلدون تمتاز بأنها تمت منذ ما قبل ولادته ابن خلدون — اذ تحدث عن أحوال أسرته وأجداده اجمالاً — ثم فصل الحديث منذ ولادته في غرة رمضان سنة 732 هـ⁽⁵⁸⁾ إلى أواخر ذي القعدة سنة 807 هـ⁽⁵⁹⁾ أي قبيل وفاته التي كانت في 26 رمضان سنة 808 هـ⁽⁶⁰⁾ هـ ومن الناحية المكانية فأحداثها تجري على امتداد المغرب العربي والأندلس ومصر والجaz الشام ومضمونها يتناول محور الذات وأبعاداً خارجية.

— محور الذات —

في هذا المحور تناول الحديث عن أصوله وأحوال أسرته وظروف نشأته ومصادر تكوينه وأساتذته وما باشره من مهام وقام به من رحلات كما أورد مجموعة من أشعاره وخطبه ورسائله المرتبطة بأحداث حياته.

1 — فقد بين نيل مختنده الذي ينتهي إلى عرب اليمن أهل حضرموت وبالذات إلى

وائل بن حُجْر، وكيف وصل سلفه إلى الأندلس وإلى تونس وكل هذا من أجل الدلالة على سمو أصله وعراقة نسبه في العروبة والجبل والشهامة والذكاء ليقول أن هذه العصبية من تلك العصبا كما أوضح أن مصادر ثقافته بعد حفظ القرآن وما يتعلّق به من رسم وقراءات درس الحديث والفقه وعلوم اللغة والأدب ومن الكتب التي درسها في هذه العلوم منظومتي الشاطبيي اللاية والرأية وموطأ مالك وصحيحة مسلم وختصر ابن الحاجب في الفقه والتسهيل لابن مالك وكتاب الشعراء الستة والحماسة وشعر أبي تمام والمتنبي وكتاب الأغاني. كما ذكر عدداً من الأساتذة النبهاء في مختلف المعارف الدينية واللغوية والتاريخية والعقلية⁽⁶¹⁾ وظل مواصلاً للتعلم حتى بعد تقلده المناصب.

2 – اضططع ابن خلدون بمهام شتى وأول مأموراته منصب كاتب العلامة في تونس والمقصود بها وضع «الحمد لله والشكر له» بالقلم الغليظ بين البسمة وما بعدها في خطابة أو مرسوم. كما تولى منصب الكتابة لأمراء آخرين منهم أبو عنان المريني وسنة 24 سنة ويسير له أثناء توليه لهذا المنصب مزيد من الاتصال بالعلماء والأخذ عنهم ولم يصف له الجبو نتيجة وشایة به نظراً لما كان بين الأمراء في الدولة المرينية من منافسة ومؤامرات، فحبسه أبو عنان، ودفعاً عن نفسه استعطفه بقصيدة في مائسي بيت، فرق له السلطان ووعده بالافراج⁽⁶²⁾ ثم تولى الكتابة لأبي سالم المريني إلا أن الجبو تعرّك فاستأذن في الرحيل إلى الأندلس فراراً من الصراعات والمؤامرات وأملاً في الاستقرار، وفي الأندلس اتصل بابن الأحمر ووزيره ابن الخطيب فاضططع بهمّة السفاراة إلى ملك قشتالة، ولكن الوشيايات كانت دائماً تلاحقه فقتله ما كان بينه وبين ابن الخطيب من مودة. ولهذا اضطرر ابن خلدون أن يغادر الأندلس قاصداً بجاية حيث تولى منصب الحجاجة لأميرها. ولما استولى السلطان عبد العزيز المريني عليها استمر ابن خلدون في عمله فترة انتقال بعدها إلى الأندلس، ولكن وجد صديقه ابن الخطيب مسجوناً فاضطرر ابن خلدون أن يتوجه إلى تلمسان التي استردها أبو حمو من المرينيين فبدأ له أن يترك المنصب ويغادر على التأليف بعد أن سمع من الصراعات السياسية ويدرك أنه لم يجد مكاناً يأمهله من الانقطاع عن الأمراء فانتقل إلى تونس ثم إلى القاهرة بعيداً عما كان يعرفه الغرب الإسلامي من مؤامرات ومنافسات بين الحكام والأمراء وانصرف للتدرّيس والقضاء هناك إلا أن الأحوال لاختلف كثيراً عما هي عليه في الغرب الإسلامي. مما عرف الاستقرار إلا في فترات قليلة فانتابه قلق وضجر من جراء ذلك وزاد حاله تكثيراً هلاكاً أهله في البحر بعد أن استقدمهم بمعرفة سلطان مصر الظاهر بررق وشفاعته عند ملك تونس أبي العباس الحفصي، فأراد أن يخلد إلى نفسه واجترار آلامه وينقطع عن المساعي الدنيوية بعد هذه المأساة، فتووجه إلى الديار

المقدسة لأداء فريضة الحج وطلبا لتفريح الكربة، وهناك تلقى أخبارا عن المغرب وما كان يجري فيه من دسائس بين رجال السياسة، ويبدو أن هذا مما فت في عزمه على العودة إليه، فرجع إلى القاهرة وعكف على الدرس وتلقين العلم، وتولى منصب القضاء مراراً، فلما هجم التتار، خرج مع ملك مصر الناصر فرج بن الملك الظاهر، واتصل بيتمور ملك التتار الذي أظهر المودة والتقدير له وأمره ملك التتار أن يكتب له بياناً عن بلاد المغرب فانجز له ذلك ثم سمح له بالرجوع إلى مصر، وكان ابن خلدون يتوجس خوفاً من أن يتمسك به. وكتب ابن خلدون إلى ملك المغرب يخبره بأمر بيتمور وقومه وتولى بعد ذلك في مصر منصب القضاء للمرة الثالثة ثم الرابعة والخامسة حتى كانت وفاته سنة 808 هـ

3 — تضم السيرة مجموعة من أشعار ابن خلدون في موضوعات مختلفة حسب ما كانت تقضيه المواقف والمناسبات التي عرفها في حياته من ذلك قصيدة في استعطاف أبي عنان وقصائد في المولد النبوى ومدح السلطان أبي سالم ومدح السلطان ابن الأحمر والأمير أبي حمو صاحب تلمسان والسلطان أبي العباس صاحب تونس وغيرهم، ومن الرسائل ما أنشأه باسم الأمراء رسالته إلى ابن الخطيب وخطة عند توليه التدريس بمصر وأخرى حين شرع في تدريس الموطأ وغير هذا من أقواله البليغة في مناسبات مختلفة.

والسيرة تعكس أحوال عصره السياسية والفكرية والاجتماعية فقد بين كثيراً من الدسائس والمؤامرات التي عرفتها الدولة المرتبطة بدولة بنى الأحمر بالأندلس وما كان يجري في تونس والمغرب الأوسط ومصر، وأورد من التفاصيل ما جعل سيرته مصدرًا مهمًا كما بين الحالة الفكرية حيث عرف بجملة من العلماء وكتاب الدول وقضاتها ومدارسها في المغرب ومصر، كما أوضح مظاهر اجتماعية من ذكره لبعض العادات والتقاليد وما كان عليه حال القضاء في مصر من تدخلات وشفاعات من ذوي النفوذ مما أدى إلى عزله مراراً، لأنه كان يتمسك بما يقتضيه الشرع.

اعتمد في أسلوب سيرته على الأسلوب المرسل متضمناً كثيراً من الأشعار والأقوال ومصطلحات العصر في مختلف الميادين وتدخل الأجناس الأدبية في سيرته لأداء وظيفة دلالية بما يكشف عن مشاعره وآرائه، وقد ركز على ذكر أعماله ومنجزاته العلمية والسياسية، ولم يخف ميولاته ومشاركته في ترجيح فريق عن آخر نظراً لما كان قائماً من مؤامرات بين الحكم والأمراء ورجالات السياسة، فسيرته من هذا الجانب تعتبر من قبل الاعترافات السياسية ودفعية تبريرية لموافقه فهو ضحية فساد سياسي ودسائس دينية وصراعات من أجل مصالح خاصة بالحكام وأتباعهم، ولم يكشف عن عواطف خاصة

بحياته الوجданية وعلاقته بالمرأة، والظاهر أنه لم يكن يرى صدور مثل هذا عنه صراحة على عادة العلماء ليظهرروا دائمًا بمنظر الحمد والورع ولا يكشفون عن مواطن الضعف البشري، نظراً لما كان عليه الوضع الاجتماعي السائد من الترفع والتعالي والتكتم.

لم تأت في المحاجات السابقة على ذكر كل الترجم والسير الذاتية التراثية فقد تم إغفال بعض منها رغبة في الاختصار أو لعدم التمكن من الاطلاع عليها مع البحث والقصصي، ومن ذلك الترجمة الذاتية لأبن حجر العسقلاني (773 هـ - 852 هـ)⁽⁶³⁾ وكذلك السيرة الذاتية لعمارة اليمني (515 هـ - 569 هـ)⁽⁶⁴⁾. وكذلك السيرة الذاتية لمحمد بن طولون (65) 880 هـ - 953 هـ).

وبالاضافة إلى ما ذكر هناك أعمال كتابية أقرب إلى جنس السيرة الذاتية مثل مأورده المباحث في مؤلفاته وأبو حيان التوحيدي خصوصاً في رسالته «الصداقة والصديق» وما خطه الحارث المخاسي من نصائح وعبد الرحمن بن الجوزي في رسالته لفتة الكبد في نصيحة الولد.

وما تقدمت الاشارة إليه من خلال هذا الفصل، يتبيّن لنا أن الترجم والسير الذاتية ضاربة في القدم ولست وليدة العصر الحديث، وإن حدث فيها تطور كبير أسلوباً وبناءً وتوجهها، ولكن ما وجد منها في التراث دون مأبده الكتاب من رسائل وخطب اذ أن عددها قليل نسبياً وأغلبها ذات قيمة إخبارية وتاريخية وبعضها استطاع أصحابها الارتفاع إلى مستوى فني رفيع من حيث الصياغة وترتبط الأحداث وشموليّة النّظر ودقّة الوصف وتماسك السرد كما حال ابن حزم والشعراوي والمؤيد في الدين، وعبد الله بن بلقين.

وأما الطابع العام الغالب على مجموع الترجم والسير الذاتية التراثية فهو :

- 1 — إما أنها إخبارية تركز أكثر على ذكر ما يتعلّق بحياة كاتبها من حيث المولد والنشأة ومصادر الثقافة وأهم الشيوخ.
- 2 — تبرير لسلوك كاتبها ودفاع عن نفسه، وآرائه وتبرئه نفسه مما يكون قد اتهم به.
- 3 — اعتراف بموافقه والادلاء بمشاعره دون تجاوز الحدود المعمودة الا في مواطن خاصة.
- 4 — وضع السيرة أو الترجمة من أجل التوجيه الاخلاقي وأخذ القدوة والعبرة.

هو اهش

- (1) تاريخ آداب اللغة العربية لجرجي زيدان طبعة دار الملال ج 1 ص 257. ج 2 ص 169، و دائرة معارف الشعب مطبعة دار الشعب سنة 1959 مجلد 2 ص 522 وما بعدها.
- (2) دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر. د. محمد غنيمي هلال. دار نهضة مصر. بدون تاريخ ص 44.
- (3) الموت والعرقية د. عبد الرحمن بدوي ص 113.
- (4) الترجم والسير. محمد عبد الغني حسن دار المعارف - القاهرة سنة 1955 ص 24.
- (5) تحرير طرسى يعبر نفسى فى التعبير عن نفسى لأحمد بن المامون البلغى، مخطوط عند ولده الشاعر عبد المالك، وقد مكتنى مشكورا من أحد نسخة مصورة انظر ص 5-1.
- (6) ترجمة حنين بن إسحاق وترجمة ابن الهيثم في عيون الأنباء لابن أبي أصيبيع، وترجمة الرازي في كتاب رسائل الرازي الفلسفية كما سيأتي بيانها بعد.
- (7) عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبيع دار الثقافة ط 3 بيروت. 1981 ج 2. ص 139.
- (8) رسائل الرازي الفلسفية نشرها باول كراوس طبعة كلية الآداب القاهرة سنة 1939 ص 107.
- (9) ترجمة ابن سينا الذاتية مع تتمتها نشر وتحقيق وتقديم فريد جحا و محمود فاخوري، وترجمتها إلى الفرنسية حكمت حصى نشرت بمناسبة الاحتفاء بالقرن 15 الهجري والذكرى الالفة لابن سينا مطبع الادارة السياسية للجيش العربي السوري سنة 1981.
- (10) عيون الأنباء ج 3 ص 149.
- (11) المصدر نفسه ص 164.
- (12) المصدر نفسه ص 330 إلى ص 350.
- (13) بذلك المجهول في افحام اليهود للسموأل بن بحبي المغربي قدم له محمد الشامي مطبعة الفجاللة الجديدة - القاهرة دون تاريخ النشر.
- (14) معجم الأدباء لياقوت الحموي مطبعة دار المؤمن - القاهرة بدون تاريخ ج 13 ص 219.
- (15) المصدر السابق ج 19 ص 11.
- (16) ترجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين لشهاب الدين أبي محمدالمعروف بأبي شامة المقدسي - تقديم وتصحيح محمد زاهد بن الحسن الكوتري. نشره عزت العطار الحسيني دار الجليل الطبيعة الثانية - بيروت - 1974 ص 37.
- (17) المغرب في حل المغرب لابن سعيد تحقيق وتعليق. د. شوقي ضيف دار المعارف. القاهرة ج 2 ص 172.
- (18) الاخطاء في تاريخ غرناطة للسان الدين ابن الخطيب حققه ووضع حواشيه وضبطه. د. محمد عبد الله عبان مكتبة الحاخامي. الطبعة الأولى القاهرة 1977 المجلد 4 ص 438.
- (19) نهاية النهاية في طبقات القراء عنى بنشره برجسرايس طبع مكتبة بيروت. لبنان - 1933 ج 2 ص 247.
- (20) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع. منشورات مكتبة الحياة بيروت ج 8 ص 2 وما بعدها.
- (21) حسن الحاضرة في أخبار مصر والقاهرة لجلال الدين السيوطي مطبعة الموسوعات بمصر - دون تاريخ ج 1 ص 155.

- (22) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقربي تحقيق د.إحسان عباس. دار صادر بيروت 1968
المجلد 1 ص 35.
- (23) الترجمة الشخصية لشوفي ضيف دار المعارف. القاهرة ص 44
- (24) تاريخ آداب اللغة العربية بجريدة زيدان ج 3 ص 67.
- (25) التحدث بنعمة الله نشر وطبع المطبعة العربية الحديثة — القاهرة سنة 1972 تحقيق اليزيث ماري سارتين عدد الصفحات 384 ص.
- (26) تناول عدد من الدارسين شخصية المقرى. انظر نفح الطيب حاشية ص 5.
- (27) المنقد من الضلال لأبي حامد الغزالى تقديم وتحقيق د.جميل صليبا. ود. كامل عياد. دار الأندلس، بيروت الطبعة 9 سنة 1980 ص 80.
- (28) المصدر نفسه ص 81
- (29) المصدر نفسه ص 135.
- (30) تناول عدد من الدارسين شخصية الغزالى وفكرة قدیماً وحديثاً منهم ت.ج دی بور في تاريخ الفلسفة في الإسلام ترجمة عبد الباقي أبوريدة مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة سنة 1957 ص 319، ود. عبد الحليم محمود في التفكير الفلسفى في الإسلام. مكتبة الأنجلو المصرية — القاهرة 1964 ص 424 — ود. عبد الرحمن بدوي في مؤلفات الغزالى وكالة المطبوعات — الكويت. ط 2. سنة 1975 وغيرهم.
- (31) لطائف المتن والأخلاق في وجوب التحدث بنعمة الله على الاطلاق لعبد الوهاب الشعراوى، طبعة عالم الفكر — القاهرة سنة 1396 هـ
- (32) سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، هبة الله الشيرازي تقديم وتحقيق محمد كامل حسين. دار الكاتب المصري — القاهرة سنة 1949.
- (33) مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان. نشر وتحقيق لشى بروفنسان دار المعارف — مصر — 1955.
- (34) المصدر نفسه ص 31-30
- (35) المصدر نفسه ص 155
- (36) المصدر نفسه ص 161
- (37) كتاب الاعتبار لأسامي بن منقذ حرره فيليب حتى مطبعة جامعة برستون الولايات المتحدة 1930. وصدر أخيراً الكتاب نفسه بتحقيق د.قاسم السمرائي. مؤسسة دار الأصالة للثقافة والنشر والاعلام. الرياض. الطبعة 1 بـ 1987 الكتاب في كلتا النسختين المحققتين غير تام اذ ضاع منه 21 ورقة من الأول من أصل 88 ورقة فالباقي 67 ورقة.
- (38) الاعتبار تحقيق السمرائي ص 182.
- (39) المصدر نفسه وكذلك الصفحة.
- (40) العربية يوهان فوك. ترجمة عبد الحليم التجار. القاهرة 1951 ص 228-229.
- (41) تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي دار العلم للملائين. بيروت 1965 ص 359.
- (42) أسامة بن منقذ حياته وأذاره حسن عباس — منشأة المعارف الاسكندرية. ج 2. ص 83.
- (43) الاعتبار بتحرير فيليب حتى ص : ت. ت من المقدمة.
- (44) المصدر السابق ص : ز.ز وقارن بما ورد في المصدر نفسه بتحقيق السمرائي ص 16 من المقدمة.
- (45) الاعتبار بتحقيق السمرائي ص 5 من المقدمة.
- (46) طرق الخمامنة في الألفة والألاف لابن حزم ضبط نصه وحرر حواشيه د.الطاھر أھم مکي. دار المعارف — القاهرة. ط 2. 1977.

- (47) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب لمجدي وهبة وكمال المهندس مكتبة لبنان 1979 ص 30.
- (48) طوق الحمامه ص 79
- (49) ألوان د.طه حسين. دار المعرف. ط.5. 1976. ص 104
- (50) طوق الحمامه ص 195.
- (51) المصدر نفسه ص 16
- (52) ابن حزم الأندلسي د.زكريا إبراهيم — اعلام العرب (56) الدار المصرية للتأليف والترجمة 1966. ص .232
- (53) الحب في التراث العربي د.محمد حسن عبد الله. عالم المعرفة عدد 36 ديسمبر 1980 ص 48-49، وكذلك الحب والصدقة في التراث العربي والدراسات المعاصرة. يوسف الشaroni دار المعرف — القاهرة 1975 ص 56.
- (54) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً. دار الكتاب اللبناني بيروت بدون تاريخ.
- (55) نشر هذه السيرة هـ.دـ. نيرغ في باريس سنة 1897 وأعادت مكتبة المشي بيغداد نشرها. بدون تاريخ.
- (56) طبعت هذه السيرة بمكتبة المقدسي وبدير. بدمشق عام 1348 (عن كتاب اعلام السائرين عن كتب سيد المرسلين محمد بن طولون حقيقه وعلق عليه محمد الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة بيروت سنة 1983 ص 28-29).
- (57) أيام مع طه حسين. د. محمد الدسوقي المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت ط 1 سنة 1978. ص 68
- (58) التعريف بابن خلدون ص 17.
- (59) المصدر السابق ص 430
- (60) عبد الرحمن ابن خلدون د.علي عبد الواحد واifi — اعلام العرب (4) وزارة الثقافة والارشاد القومي — القاهرة — ص 131
- (61) التعريف بابن خلدون ص 17-68.
- (62) المصدر السابق ص 69-70
- (63) رفع الأصر عن قضاة مصر (عن الترجمة الذاتية د.مجىء إبراهيم عبد الدائم. حاشية ص 43) حيث أورد ابن حجر العسقلاني ترجمته الذاتية في رفع الأصر.
- (64) بعد الانتهاء من هذا البحث صدر تحليل للسيرة الذاتية الخاصة بعمارة اليمني بمجلة الفصيل — عدد 146 نوفمبر 1988 ص 33-35.
- (65) انظر الاحالة (56) من هو امش هذا الفصل.
- (*) هذا البحث مستخلص من رسالة جامعية بإشراف الدكتور محمد الكتاني